مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn:2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 12/ العدد: 01 (2024)، ص: 1137-1156

الأبعاد الفلسفية لصورة الصحراء الجزائرية في رواية تلك المحبة للحبيب السايح.

The philosophical dimensions of the image of the Algerian desert in the novel That Love for Habib Sayeh.

بورويباي بن عودة[1]، عواد عبد القادر[2]

[1] جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس (الجزائر)،

bebouroubey@gmail.com

[2] جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس (الجزائر)، b.aoued@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 03 /2024/01 تاريخ القبول: 2024/02/16 تاريخ النشر: 2024/03/03

ملخص: تعد الصحراء من أهم المواضيع التي اشتغلت عليها عدة كتابات من حيث فضائها و تنوعها الثقافي، و البنية الإجتماعبية على اختلافها و تنوعها و كذا المنظور الفلسفي و الإيديولوجي، لمختلف أبعادها العرقية و الدينية و حتى السياسية التي تلعب دورا هاما في بناء البيئة الصحراوية و مدى صورتها لدى الأدباء و الفلاسفة، التي لفتت عددا كبيرا من المؤرخين ورجال الدين لما تسخر به من حضارة و تاريخ عريق على مدى العصور، و من بين هذه الكتابات كتابة الغربيين و العرب حول النظرة الفلسفية لصورة الصحراء من جماليتها و عرقها الإجتماعي و الديني الموروث الثقافي المتعدد في البيئة الصحراوية من منطقة إلى أخرى، و قد تتجلى هذه الأبعاد في قراءتنا لرواية تلك المحبة للحبيب السايح، كموضوعا للدراسات الصورائية والكتابات الجزائرية التي أثرت الصحراء بمعالمها و عاداتها و تقاليدها، و تقريب الهوية للآخر.

كلمات مفتاحية: الفلسفة، الصورة، الإيديولوجية، الدين، العرق، الصحراء.

Abstract: The desert is one of the most important topics that several writings have worked on in terms of its space and cultural diversity, the social structure in all its differences and diversity, as well as the philosophical and ideological perspective, due to its various ethnic, religious and even political dimensions that play an important role in building the desert environment and the extent of its image. Among writers and philosophers, which attracted a large number of historians and clerics because of its mockery of ancient civilization and history throughout the ages, Among these writings is the writing of Westerners and Arabs about the philosophical view of the image of the desert in terms of its beauty, its social and religious ethnicity, and the multiple cultural heritage in the desert environment from one region to another. These dimensions may be evident in our reading of the novel That Love for Habib Sayeh, as a subject for pictorial studies and Algerian writings that enriched the desert with its landmarks, customs and traditions, and brought identity closer to the other.

Keywords: Philosophy, image, ideology, religion, race, desert.

***المؤلف المرسل:** بورويای بن عودة

1. مقدمة

نظرا للتنوع الشاسع للبيئة الصحراوية من خلال رتبتها الطبيعية و قساوتها التي قد تهيب الناظر إليها بانفراره من هذه الطبيعة القاسية، لكن إذ غصنا في أعماقها و عبرنا عبر رمالها وجدنا تاريخها العتيق لما يحمله من موروث ثقافي مختلف من بيئة لبية أخرى، و مسعى إنساني يجدر بنا لبحث فيه من قيم فلسفية واجتماعية و صراع عقائدي الذي ساد من الأزل بسبب الخلافات ايديولوجية، ونظرة الفلاسفة و الأدباء حول موضوع الصحراء و ما يدور حولها من صراعات

وثقافة الآخر (الغربيين) الذي أخذ على عاتقه تصوير صورة الصحراء من منظومها الفلسفي و الجمالي.

و قد يؤدي هذا المنظور الفلسفي إلى تشويه صورة الصحراء من خلال اعتبار البنية البشرية، على أنه شعب همجي يفتقر لأدنى الثقافات المتحضرة، و عدم تميزه لحوارات مستعلية، لكن هنالك من رأى أن هذا التصور المشن لثقافة متشبعة بتعاليم الدين و تاريخ عريق و شعب متحضر منذ وجوده في هذه البيئة، ردا على كتاباتهم المزيفة باعادة الصورة الحقيقية للصحراء الجزائرية. و من بين الذين كتبوا عن الصحراء الجزائرية دفاعا عنها، الكاتب الحبيب السايح في رواية تلك المحبة، والروائي رشيد بوجدرة في روايته تيميمون، و كذا قصة أمونستغران (تمنراست) للمؤلف عزالدين ميهوبي. على عكس كتابة الغربيين كأمثال غيدموباسون (Guidmopasson) في رواية بلاد الشمس، و من هنا ينتابنا التساؤل، كيف جسدت فلسفة صورة الصحراء في أذهان الغربيين؟، ما مدى فلسفة الحبيب السايح للصحراء؟. و من هذا المنطلق نجيب على هذه الإشكالية بعرضنا للمفهوم الفلسفي للصورائية و الصراع الثقافي.

و من خلال دراستنا لهذا المقال سنعرج المفاهيم المطروحة و مدى تأثيرها على صحرائنا، و ذلك من الوجهة الفلسفية و العقائدية و كذا منظورها الصورائي، إذن ما مفهوم الصورائية من الناحية الأدبية و الفلسفية؟ وتموضعها في الدراسات الروائية الخاصة بالصحراء.

2. من الناحية الأدبية

الصوة عبارة عن مجموعة من المفردات و المصطلاحات و الجمل التصويرية، من أجل إثارة الخيال لدى المتلقي والإيحاء الوجداني و العقلي، الذي يؤثر في نفسية القارئ و قد تكون هذه الصورة عبارة عن أبيات شعرية أو نثرية تؤدي وظيفة معينة، و قد تجرد الكاتب في إغراقه اللفظي من أجل الوصول إلى مشارف الغموض

والوصول إلى صورة معينة لها رمزيتها و خطاباتها إلى فئة معينة فهي عبارة عن "إبداع فائق متألق"(شاكر عبد الحميد، 1992، ص 181-192).

و من خلال هذا المفهوم يتضح لنا أن الصورة ماهي إلا إبداعات في المجال النثري أو الشعري، التي تقدم للمتلقي صورة عقلية و فلسفية بحيث تجعلهم يلاحظون أو يشعرون بالعالم بطريقة مختلفة و جديدة.

فالصورة عملية مركبة ترتبط بنسيج العمل الإبداعي و الفلسفي ارتباطا وثيقا، و تضبط وظائفها داخل النص أو العمل الأدبي، من خلال القيم الشعورية والتعبيرية المكونة لها، و جعل علاقتها الصورية بالإنسان و ما يحيط بها من مكونات طبيعية، التي تتنوع حسب طابعها العقلي أو الحسي و حتى الخيالي. إذن هنالك صورة عقلية و أخرى وجدانية و بالتالي فهي تنقسم إلى قسمين:

1.2 الصورة المركبة

و هي صورة خارجية تتشكل من مجموعة من القضايا و الأفكار الإجتماعية والإنسانية، و اتصالها المباشر بين الواقع الفني عن طريق أجناس نثرية كالقصة والرواية... إلخ، و أخرى شعرية، و الواقع الإجتماعي و به تحدد شخصية الأديب وموقفه و تكوينه الثقافي و هويته و القدرة على الإلتقاط و التصوير و التفاعل البنائي "مع الحياة و الفن"(نادر أحمد عبد الخالق، 2008، ص 44-48).

2.2 الصورة البسيطة

و هي عبارة عن ترجمة وجدانية لملامح الصورة المركبة، فهي تنسق بالموضوع و الفكرة و تكتشف الشخصية و الحدث و الفضاء المكاني و الزماني في أشكال تصويرية تعتمد على الحواس و إدرام الموجودات الواقعية لما فيها من معاني وشفرات و دلالات تهدف إلى إثراء خبايا الصورة المركبة، فيها تحدد لنا الفضاءات المختلفة في الدراسات الفلسفية و الأدبية، و ترتكز على الحواس.

و بمفهوم مبسط، فالصورائية هي ما تتيح لنا صورة الأنا و الآخر بما فيها من محاسن و مساوئ لبيئة مختلفة أو ثقافات متعددة، و التي قد تصور لنا صورة مغلوطة أو تشوهها من محختلف المجالات، و خير دليل على ذلك أثناء الحرب العالمية II عندما قامت السيد دوستاي (Madame Dostai) الفرنسية بزيارة إلى ألمانيا، حيث كانت صورة الفرنسيين إلى ألمانيا بأنهم شعب متخلف و همجي ويستعملون لغة خشنة و ركيكة و غير مفهومة، و لكن كانت نظرة الكاتبة دوستاي مختلفة عما كان يظن الشعب الفرنسي بقولها "إنهم شعب متحضر و طيب و محترم و يحترم كل زائر إليه"، و من هذا المنطلق تظهر الصورة الحقيقية للشعب الألماني بعدما كانت هنالك نظرة مغلوطة و مزيفة (مدام دوستاي، 1946، ص 98).

صورة الإسلام في العالم الأوروبي الذين لا يعلمون عنه شيء إلا تشويه صورة سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم، و بعد دراسته للإسلام و البحث فيه وجد أن الإسلام دين حق و سلم و عدالة و علاقات اجتماعية تنظم حياة المجتمع العربي، فقام بتغيير صورة الإسلام إلى صورته الحقيقية و الإعتزاز بالقرآن الكريم على أنه دين الحق السموي. كما له عملا آخرا في كتابه تاريخ العرب، حيث قسمه إلى أربعة عصور "عصر الجاهلية، صدر الإسلام، الأموي، و العباسي" (بروكلمان، 1908، ص 18).

و من خلال هذا تبين لنا الصورائية في الدراسات المختلفة قد تشوه و تحسن في نفس الوقت و رغم كل هذا فالصورائية تختلف من بيئة إلى أخرى، كما صور لنا الأدباء الغربيين الصحراء فمنهم من رآها مكانا للمتعة و الثراء، و منهم من رآها فضاء قاحلا وجهنمي لا تليق بها الحياة في فضاء خال.

3. من الناحية الفلسفية

يرى الفيلسوف أرسطو (Ariston) أن الصورة عن عالم مجرد "مرتبط بالمادة " حيث تتشكل المادة بها و بجردها، فلا وجود لصورة إن لم تكن هناك مادة متواجدة

في الكون و الطبيعة و النظرة التأملية لهذا الكون الذي يأخذ عن أبعاده الصور المدرجة لعالم المادة (محمد الغزالي، 1940، ص 112).

و القصد من ذلك أن بالصورائية في مجالها الفلسفي ترتكز على الدقة والوضوح في تشكيل الصورة المنطقية لا العاطفية و الإعتماد على العقل و التميز ما يحتوي من مظامينها و علاقتها بالواقع المعيش، و دراسة البنية المورفولوجية لعدة بيئات و مجتمعات، و حتى في المجال الميتافيزيقي و الصراع العقائدي في تكوين الكون، و من بين أهم الفلاسفة الذين أخذوا على عاتقهم البحث في الطبيعة و كونها كأفلاطون و أرسطو و ديكارت في كتابه مبدأ الشك، فهؤولاء لهم نظرة صورية مختلفة عما يلاحظ غيرهم.

كما لنا نصيب من الصورة الفلسفية لدى فلاسفة العرب، كالأشاعرة و ابن رشد و الفرابي و ابن خلدون ... إلخ الذين يقدمون لنا فلسفة الجمال بطابعها الرباني على عكس الغربيين.

إذن فالصورة الفلسفية تختلف عن الصورة الأدبية باعتبار الأولى ذات طابع وجداني و نقل حقيقة كما هي أو تزييفها، و الثانية تعتمد على المنطق و العقل و التحليل المنطقي في جميع ميادين الحياة، كما لها نظرة تأملية كالفلسفة التعبيرية و الخلق والجمال. و من هنا يتحدد مجال الصورائية و دراسة موضوعاتها الثقافية والإجتماعية و البئية، و من بين هذه الدراسات التي اشتغلت عليها الصورائية، الدراسات الأدبية بمختلف أنواعها سواء من الجوانب التاريخية و الفلسفية و ما تحيط بالمجتمع و موروثه الثقافي سو الديني، كما تشترط الصورائية التقيد بالموضوعية لدى المجتمع و الإنسان.

أما من الجانب الفلسفي فقد تكون محايدة عما هي عليه و تشتغل بالتفكير الديني من الناحية المنطقية، و بالوسط الإجتماعي و إصدار أحكام التي تولي عن إيديولوجيات مختلفة بتأثيره على الآخر، و ذلك إلى وجود قوانين لها طابع العلم و

صورة الإجماع و "صورة التاريخ غير المتجانس" (محسن محمد حسين، 2012، ص 49).

و من بين هذه الدراسات، كدراسة موضوع الصحراء في عدة روايات التي أخذت على عاتقها، دراسة صورة الصحراء من حيث طبيعتها و هويتها و موروثها الثقافي المتعدد، و من أبرزها رواية تلك المحبة للحبيب السايح، و تيميمون لرشيد بوجدرة، و ريح الجنوب لعبد الحميد هدوبة، و كذا تمنراست لعزالدين ميهوبي، كما توجد روايات غربية أخرى لمستشرقين كبريكلمان (Pruckelman) في كتاب الصحراء العربية ورحلاته الإستشراقية، و كذا بلاد الشمس لغيد موباسون (Guid Mopasson).

و من هذا المنطلق سنعرج في دراستنا هذه على ماهية الصحراء الجزائرية من الوجهة الفلسفية في تلك المحبة للحبيب السايح بأبعادها الثلاثة، البعد الإجتماعي، الديني، و الثقافي.

4. ماهية الصحراء الجزائرية

1.4 فضاء الصحراء

يعد الفضاء من المصطلحات التي دخلت عالم الدراسات و البحوث التي هيمنت على عناصر العمل الروائي، بإبراز شخصيته و زمن الحكي أو السرد والحدث و الأسس الفنية و الجمالية، فالفضاء يتخذ العلوم الإنسانية و الفلسفية موضوعا للتنظير و الممارسة، من حيث هذه الدراسات ذات مفهوم واقعي "[7] شغلا أساسا لها".

فالفضاء استراتيجية يستعملها الروائي و الفيلسوف لبناء نصه أو روايته، إذ يقوم المتلقي بالكشف عن جماليات الرواية و مدى فلسفتها، وقديختلف الفضاء أو الحيز الفلسفي إلى عدة رموز التي حددها مايير واهيرني (Maiir Ouahirney) موشيرا إلى أربعة أشكال التي تقرب "جمالية الفضاء" (سعيد علوش، 1985، ص 163).

- الفضاء الجغرافي (Espace géographique): و هو مكان تتولد فيه الأحداث و طريقة الحكي،
- الفضاء الدلالي الفلسفي (Espace Sémiotique philosophique): و الذي يشير إلى الصورة الفلسفية التي تخلقها اللغة و ما يرتبط بدلالتها و رمزيتها.
- الفضاء الكوني (Espace cosmologique): الذي يحدد طبيعة العلاقة الكونية مع غيرها من الفضاءات الجغرافية و الفلسفية.
- الفضاء الإستيمولوجي (Espace étymologique): و هو فضاء يعتمد على المنطق و ما هو حقيقي و التحليل المباشر بين طبيعة الإنسان و ما يحيط بمجتمعه، فهو قريب من التحليل الفلسفي.

إضافة إلى الفضاء النصي فهو فضاء غير متعلق بالمكان، بل تشتغل عليه الكتابة المنطقية و الحكائية، كمنظور لرؤية فلسفية تشير إلى الطريقة التي يستطيع بها الروائي و الحكائي المهيمن على عالمه بما فيه من أبطال يتحركون على واجهة تشبه خشبة المسرح و مدى تفكيرها المنطقي و الفلسفي. و من هنا فالفضاء له علاقة بالصحراء على أنها أرض قاسية بمناخها، و قاحلة بطبيعتها، و افتقارها الزراعي إلا انها جزء لا يتجزأ من ثراثنا الطبيعي، و بالتالي فإنها غنية بثراثها الثقافي و بغزارة إنتاجها الدلالي و ذات طابع رمزي و فلسفي على الدوام "أوسع فضاء" (فيصل الأحمر، 2010، ص 123-128).

إذن الصحراء ذلك الفضاء السحري و الأسطوري الغارق فب المخيال البشرية عامة، و في االذاكرةالعربية بشكل خاص، حيث تكشف لنا اللبس عن طريق الوعي مع طبيعتها المتقلبة التي في حالة هيجانها لا "تسكن حينا حتى لا تثور"، و لا ترض حتى تغضب بتحولها إلى مكان مسرحي و شعري ذات طابع جمالي (حسن المودن، 2012، ص 62).

إذن تتيح لنا دراسة الفضاء الصحراوي التأمل في ناظرها، و تجذب فلسفتها في "مخيلة قارئها"، فهي تشمل الوسائط الأساسية للأسطورة الروائية بثراثها و إبداعها الأدبي و بجمال فلسفتها، و مكان شهدت فيه عدة حضرات عبر العصور (حامد الغزالي، 1984، ص 83).

و هي عكس ما كان يعتبره أناس أنه مكان الخلاء و الموحش و المليء بالأخطار، و لكن في الواقع فهي فضاء للإطمئنان و الهدوء و السكينة لما فيها من أبعاد طوبوغرافية و "ثقافات متعددة و بيئات إجتماعية"، لها طابعها المتميز و ديانتها التي بدأت بنزوحها إلى هذه الأرض منذ نزول الأنبياء، فهي مهاد الحضارات و الرسل منذ القدم. و قد شهدت صحرائنا الجزائرية عدة طبوع ثقافية مختلفة و حضارات متعاقبة منذ العصور القديمة إلى يومنا هذا، كما مهدت لأطماع أجنبية لنهب خيراتها و ثرواتها، و حتى منتوجها الفكري و الإجتماعي، التي ظهرت خلال الحقبة الإستعمارية و يظهر ذلك جليا في منطقة الجنوب الجزائري و في بيئة محددة و التي لها عدة جوانب تاريخية و مناطق أثارية ألا و هي مدينة أدرار التي تمازجت بها عدة ثقافات وحوارات غربية و عربية و يهودية، مما ظهر ما هو متمسك بهويته و عقيديته و ما هو منحرف عن ثقافته و مجتمعه. و من بين هذه الدراسات التي سنتناولها في هذا المقال رواية تلك المحبة للحبيب السايح. من بعدها الإجتماعي و الديني و الثقافي (إبن خلدون، 1980، ص 84).

5. لمحة مختصرة عن رواية تلك المحبة للحبيب السايح

ولد الحبيب السايح سنة 1950 بمنطقة أولاد سيدي عيسى، ولاية معسكر و نشأ في ولاية سعيدة، خريج جامعة وهران، تحصل على شهادة ليسانس في الأدب واللغة، و اشتغل في التدريس و ساهم في إثراء الصحافة الجزائرية.

هذه الرواية عبارة عن نص في تيمته و في شكله الفلسفي و مقاربته الفنية وسرده التي تمازج بين الموروث و بين الحدثي لغة و نظمها، و تلامس الفن الغرائبي

والصوفية من جهة و بقراءة جمالية و صورة الجزائر الواقعة في تاريخ منسي و الهوية المجهولة من خلال صحرائنا و عن غزوها خاصة صحراء أدرار بما تمتلكه من قصورها و فقراتها و نخيلها و بيئاتها، كقرارة و تيدكلت و توات التي عرفت قديما تمنطيط و كذا هجرات اليهود و المسيحيين و المسلمين إليها، و حتى من بلاد الأندلس، و عن الحروب التي وقعت في هذه البيئة الصحراوية، و عن التجارب النووية التي قام بها المستعمر فهي مملكة الصحراء و سر الجمال و عاكسة الماء والنار.

6. دراسة البعد الاجتماعي

فهنا يكمن البعد السوسيولوجي من الناحية الفلسفية في كيفية سرد الطابع الحكائي لهذه الرواية و تكوين بنية المجتمع الصحراوي و علاقتهم مع بعضهم البعض، باعتباره مجتمع ممزوج من مختلف فيئات فمنهم المسلم و اليهودي والمسيحي الذين عمروا و استولوا خاصة في الحقبة الإستعمارية و كذا دراسة الرؤية الخارجية الفلسفية لهذه الرواية، حيث أن السارد يبين كيفية المعاملات مع هذه الفئات الثلاث في حياتهم الإجتماعية التي يسودها نوع من الكراهية و تهميش المجتمع الإسلامي في صحراء أدرار التي دارت فيها هذه الأحداث و مختلف الشخصيات كشخصية باتول و باحيدة و الضابط و بنت كلو اليهودية التي تكن لباتول الكره التام باعتبار باتول إمرأة شريفة و "تمثل العفة رمزا للإسلام" و ملكة من ملوك قبائل التوارق العتيقة التي لها حضارة منذ العصور (الحبيب السايح، 1990، ص 24). ومن خلال قراءتنا لهذه الرواية نجد المجتمع الصحراوي منقسما إلى ثلاث فئات و هي:

- الفئة المسلمة:

و التي تمثلها باتول و اسماعيل الدرويش، الذي ارتبط هذا الأخير خين دخوله إلى عالم الصحراء خاصة في منطقة تمنطيط، حيث اغوته إمرأة بهية تجذب الأنظار

و تخلق نوعا من الإندفاع و مواجهة أغوائه و شهواته النفسية تجاه هذه المرأة الجذابة "وشرقت الدنيا في جانبيها" (الحبيب السايح، 1990، ص 63).

- الفئة الثانية:

أما الفئة الثانية و المتمثلة في شخصية مبروكة و جبريل المسيحي، فالأولى مسلمة و الثانية مسيحية، أين تظهر فيهما فلسفة تبادل الأراء و الصراع النفسي واختلاف الأديان، إلا أنهما ظلا حبيسين في قبع الحب و الجدران الصامتة، و ذلك لوجود عائق ديني "لا شيء كالمحبة تخترق حد الدين"، فهنا تظهر فلسفة تبادل الأنتروبولوجي من حيث اختلاف العرق و الدين و من ملتين مختلفتين، حيث المسيحي و قع في حب مسلمة، رغم العوائق العرفية و الإجتماعية التي تمنع هذه العلاقة العاطفية و التي غالبا ما تحدث في سرية الفضاء الصحراوي (الحبيب السايح، 1990، ص 179). و قد نشير إلى هذه الظاهرة التي تختلف عن شخصية باتول و درويش باعتبارهما: الأولى شخصية مسلمة و الأخرى مسيحية، و يتضح أنهما عاقان لفترة ما، و ذلك من أجل اشباع رغباتهما و شهواتهما فقط، فهي علاقة مرتبطة بالوقت فقط، على الرغم من العوائق الدينية التي هي عبارة عن حاجز منيع لهذه العلاقة، فتتيح لنا حالة اجتماعية يسودها نوع من المحبة تارة و نوع من الخيانة الدينية تارة أخرى، و ذلك بامتزاج الأجنبي في حب المسلمة عن طريق العلاقات الغرامية التي من الممكن أن تؤدي إلى رابطة الزواج غير الشرعي و الخيانة التي تمس بالشرف. و المثير في هذه القضية هو التمازج بين الثقافات المختلفة والخطابات ذات طابع يخرج عن سيطرة الذات و " التفكير العقلي" و المنطقي و بعده الأيديولوجي و الفلسفي، مع العلم أن المجتمع الصحراوي مجتمعا محافظا، إلا أن هنالك بعض الإختلالات و بعض التوازنات التي تعكس صورة المجتمع الصحراوي في الرواية و خاصة في منطقة أدرار (مؤسسة موكرياني للدراسات و النشر العراق، 2012، ص 60).

- الفئة الثالثة:

إضافة إلى شخصية باحيدة و جولييت التي على عاتقهما فلسفة "التقابل والتوازي" في البنية الإجتماعية، أي أن باحيدة رجل مثقف بتعاليم الدين و حاملا للقرآن الكريم و يتقن اللغة الفرنسية و أبعادها، و جولييت إمرأة مسيحية تعمل راهبة في الكنيسة، مما أدى هذين الأخيرين إلى وقوعهما في حالة فراغ و عشق، فحب المسيحية محرم معناه أن الرهبان لا يحبون و لا يعشقون و إنما عملهم يقتصر على خدمة الكنيسة و الرب، فحسب معتقدهم فهو محرم عليهم. و في الإسلام الحب بخلوته محرم إلا إذا كان حبا عفيفا برابطة دينية، و يمنع اللقاءات السرية الخلوية. فعلاقة وقوع رجل دين مثقف و مشبع بتعاليم دينه يقع في غرام مسيحية متعطشة لأهواء عرائزية جنسية، و بالتالي وقوعهما في الخطيئة رغم اختلاف ملتهما و عرقهما (الجيلالي بومدين، 2012، ص 33).

و من الملاحظ في هذه الحالة علاقة حب محرمة في مجتمع محافظ تحدث في خلاء الصحراء بعيدة عن المجالس القرآنية و الكنائسية. و من وجهتين مختلفتين سواء من الدين أو العرق، لكن سادت بينهما محبة عشق حيث لا يمكن الإستغناء عن بعضهما البعض.

- الفئة الرابعة:

و هي الشخصيات المتسلطة التي تدين إلى الكراهية و التهميش و زعزعة المجتمع الصحراوي و جعله استقراطيا و طبقيا نجد شخصية الضابط الفرنسي، وبنت كلو و هي يهودية الأصل و التي تشوه صورة المرأة الصحراوية (باتول)، و ذلك بإلقاء عليها المكائد و الإفتراءات التي تقع بينها و بين اسماعيل درويش في لقاءاتهما وتصفها بالمرأة الخائنة لوطنها و إقامة علاقة شهوانية "لم تخف عن عيون حين تخلو باسماعيل" (الحبيب السايح، 1990، ص 63).

فهي إمرأة ساحرة حقودة على الدين الإسلامي و تسعى من ذلك إلى تفرقة المجتمع بمكائدها و مروغاتها اليهودية، و أما عن الضابط "الكولونالي فإنه يستعمل السيطرة و بسط قوته" و سلب ثروات و جعل أهل المنطقة عبيدا و خماسين وز القضاء على الهوية الوطنية لهذا المكجتمع و الوطن خاصة، بنشر المسيحية والتنصير، فنظرته الفلسفية هي الهيمنة و الإستحواذ على المقومات الوطنية والقضاء على الهوة، إذن فقد ساد في المجتمع الصحراوي في هذه الرواية نوعا من الحب و الخيانة و عدم الإستقرار و نشر البدع و الخرافات في أوساط مجتمع كانت له مكانة مرموقة عبر عصور سابقة و حضارات عريقة يشهد لها التاريخ الجزائري (سعيد علوش، 2008، ص 120).

7. دراسة البعد العقائدي و الديني

بعد دراستنا للبعد الإجتماعي و مكوناته الطبقية، سنتعرض إلى أهم النقاط التي لها دور هام في تركيب الفلسفة الدينية و العقائدية و نلخصها في ثلاث نقاط:

أولا: دراسة صورة المرأة الصحراوية و التي تمثل شخصية باتول فهي ترمز للإسلام و النقاء و الصفاء و متشبعة بتعاليم دينية و "مركز الحضارة التاريخية" في منطقة أدرار و خاصة توات و تمنطيط (يقطين سعيد، 1997، ص 283). فهي تأخذ بعدا فلسفيا له دلالات عقائدية من الناحية الدينية و التاريخية، مستلهخمة من القصص القرآني كشخصية مريم العذراء و العفيفة، و بذلك فهي أسطورة دينية مقتبسة من القرآن الكريم تؤمن بالعقيدة اسلامية و المحافظة على تعاليم الإسلام ومحبة لفعل الخير و مساندة المحتاجين و صامدة أمام الأجنبي "ترى عيونها رمزا من الصفاء" (الحبيب السايح، 1990، ص 68)، أما عن شخصية اسماعيل درويش التي تعتبر شخصية غامضة ولكن ما هو إلا رجل صالح يخدم الدين بتعاليمه و نشرة في وقت تسوده الخرفات و البدع التي نشرها الإستعمار من أجل إضعاف الهوية الدينية لمجتمع ساده التخلف و الفساد، و العلاقات الغرامية المحرمة، التي نهانا عنها

الإسلام و لكن كان حبه عذريا لأنه وقع في حب باتول المرأة الطاهرة التي تدافع عن مبادئ العقيدة الإسلامية و هذا ما أثر عليه من أجل حبها له و مساندتها في الأمور الدينية و المحافظة على المجتمع الذي قلما كان محافظا قبل دخول أقدام سوداء تستدمر العقائد و ذلك بهدف تشويه صورة الإسلام "عند المرأة و الرجل" (إيمان بقداسة، 1998، ص 10). إذن، إذ قلنا أن شخصية باتول من الناحية الدينية فهي إمرأة صحراوية أدرارية، راهنت على تحقيق كرامة لنفسها و هذه تدخل في فلسفة " الذات و العزة" و كذا لشعبها و على أن تكون عاملة على تغيير زمن الصراع و منبع التجانس و التظافر لأسرتها و المحافظة على عقيدتها و مجتمعها، فهي فخر و رمز القداسة الدينية (إيمان بقداسة، 1998، ص 10).

ثانيا: الديانة المسيحية و اليهودية: و قد تجلت في هذه الرواية عن شخصيات يهودية و أخرى مسيحية، و الدليل على ذلك هو وجود كنائس في وسط الصحراء التي عمد المستهمر على بنائها بهدف طمس الشخصية الجزائرية أو الهوية، و يسعى إلى تشويه صورة الإسلام عامة في أرض كانت مهادا للأنبياء و المرسلين و فيها حضارات متعاقبة قبل التاريخ البشري، فقد نجد شخصية بنت كلو اليهودية، و هي عرافة يهودية تسعى لنشر الديانة اليهودية و زرع الفتن بإستعمالها لطرق سحرية و إلهام أهل المنطقة بأنها عرافة بأمور الدنيا، و الهدف في ذلك إيقاعهم في الشرك بالله وانزياحهم عن ملة الإسلام و كل هذا من أجل تحقيق رغابات المستعمر الصليبي والقصاء على الهوة العربية، بضرب الشرف كما فعلت مع باتول "كانت تتكلم في عرض الإسلام" (شرف باتول). و من البادييهي فإن الديانة اليهودية تبغض الإسلام منذ و جود سيدنا محمد عليه الصلاة و السلام، و حتى مع الأنبياء الذين أرسلهم الله عز وجل لهدايتهم، لكن في كل مرة يتعجزون و يعارضون كما ورد ذلك في سورة البقرة و عدة سور أخرى من القرآن الكريم، و أن اليهود قوم عرفوا بالغدر و الخيانة و نفي الوعود لذا جعلهم الله عبارة عن أقليات و نفيهم و تيههم في بقاع مختلفة، و هذا دليل

على نفرهم في الصحاري و مناطق أخرى. ففي هذه الرواية تبين لنا أن الفلسفة العقائدية و إندفاعها و كرهها للإسلام و تهجماتها على الدين الحق و نبذهم من طرف اليهود منذ العصور التاريخية إلى غاية يومنا هذا (الحبيب السايح، 1990، ص 102).

ثالثا: فتظهر في شخصية جبريل الذي يمثل الديانة المسيحية، و مبروكة التي تمثل الديانة الإسلامية و هذا ما يتنافى مع عقيدتنا الإسلامية بحيث لا يحق بخلوة الرجل مع المرأة تحريما شرعيا، و في المسيحية المعروف بالخطيئة، و كلتا هاتين العبارتين لهما نفس المقصد، و الملفت في ذلك الأسم المستعار لجبريل حيث طمس رجل الكنيسة جبريل ليدل على إسم من ملائكة الله سبحانه و تعالى بهدف التعاطف مع الدين الإسلامي حتى لا يكتشف أمره الإيديولوجي و بإقامة علاقة غرامية مع مبروكة التي تعاني في ضعف قوة إيمانها و مدى نظرتها الفلسفية حول الدين الإسلامي و إغوائها عن ملذات الحياة، و الدليل على ذلك "قائلا: لا شيء كالمحبة تخترق الدين"، فالشخصية الأولى تعتمد في تعبدها على الكنيسة التي تقوم خلف ستار المستعمر من أجل إسقاط صورة الإسلام متبعين بذلك أسماء مستعارة وتحليل ما حمه الإسلام بغتباع الفواحش في مجتمع محافظ، و لأخرة تعتمد على المساجد لإقامة الشعائر الإسلامية و الدينية. فهتين الشخصيتين تختلفان في العرق و الدين و حتى الأيديولوجية الفلسفية (الحبيب السايح، 1990، ص 179).

و في نقطة أخرى، وقوع باحيدة في حب جولييت، حيث يتبر باحيدة رجل دين متعلم في زوايا قرآنية متشبعا بالثقافة الإسلامية و حافظا لكتاب الله، لكن فراغه العاطفي أدى به إلى حبه العنيف مع إمرأة مسيحية تعمل راهبة في الكنيسة، هذا ما أدى بهما بالوقوع في الخطيئة على لسان الديانة المسيحية. و الحرام في العقيدة الإسلامية "فحدق أحدهما في الآخر يسيران مسافة بين البحر و الرمل فظهر على شكل رجل و إمرأة" (الحبيب السايح، 1990، ص 181).

و الملفت في هذه الرواية تواجد الديانة المسيحية و الإسلامية، لكن هنالك ما يعرف ب"فلسفة التعارض و الشك" عند ديكارت و البنية الإجتماعية عند دولكايم، و ظهور الإقتباس في قصص الحب العالمي عند جولييت (روميو و جولييت)، و هي قصص خرافية منبوذة و محرمة في المجتمع الإسلامي (ديكارت، 1958، ص 100)، حيث يكون الحب الحقيقي في الإسلام هو الحب الإلاهي الرباني و العفيف من أجل إنشاء رابطة زوجية صالحة، على عكس هذه العلاقة بين عربي و أجنبية، و القرآن حرم الزواج بالمرأة الكتابية حتى تدخل ملة الإسلام، و ليس عن طريق العلاقات الماجنة المنافية لبيئة محافظة. و من خلال هذه الأبعاد العقائدية نرتكز على بعض النقاط:

- تواجد ثلاث ديانات في صحراء أدرار، ألا و هي الإسلامية، المسيحية، واليهودية. و كل هذه الديانات خاصة المسيحية و اليهودية لها خلفياتها و عقيدتها من أجل الإطاحة بالدين الإسلامي و تشويه صورته من مختلف أبعاده و خاصة الفترة الإستعمارية كما استعمل وسيلة الحب و العشق في هذه الرواية و الوقوع في علاقات جنسية و هي منبوذة و محرمة في الإسلام من إغواءات المرأة الأجنبية للعربي المسلم "الأجنبي للأنا" و هو الرجل العربي المسلم و الأخر الأجنبي سواء الرجل أو الإمرأة، ومرة يحدث العكس و نشر المسيحية أي عن طريق تبييض المسيحية و تزييف الإسلام عن طريق المكائد اليهودية التي تزرع الفتن و التكهن بالمستقبل حتى يصدقونهم و يبعدونهم عن إسلامهم، إلا أن عقيدتنا قد تصدت لهذه المؤامرات الخبيثة و إيديولوجياتها و خلفياتها و محاربتها بتعاليم الدين ألإسلامي و القضاء عليها بالعلم. و بالتالي في هذه اللرواية تقاطع الديانات الثلاث تهدف إلى غاية مستهدفة بالمجتمع الصحراوي و فلسفة حوارية مغالطة لهذه البيئة (بوعزة محمد، 2010، ص 99).

8. البعد الثقافي و التراثي نجد الروائي قد استلهم فلسفته من عدة دلالات خاصة في القرأن الكريم، بغستعمال مصطلحات لروايته تلك المحبة، و التي تحمل عنوان المحبة و ذكرت في المصطلح الفلسفي و التي تقابل بحب الذات و الطبيعة و حتى الحرية، كما وردت في النصوص القرآنية لقوله تعالى: "قل إن كنتم تحبون الله اتبعوني يحبكم الله و يغفر لكم" الأية 31 من سورة آل عمران. و يذكر الروائي عن الفتى الخلاسي في كلامه "تغرب في محبة أغلال تلك العبودية" (الحبيب السايح، 1990، ص 188)،فهذا المقطع قريب من الآية الكريمة نتيجة لتمسكه بهذه الأرض و كمحبة العبد لربه فهي تقترب من الفلسفة الصوفية الذين يختارون حب الله عن الذات و الإنزياح عن ملذات الحياة، و هذه العبارات تجانب فلسفة التأمل في الكون و عما يدور حوله من متغيرات، فرواية الحبيب السايح مقتبسة بعض الشيء من القرآن الكريم، واستعمل عدة روافد ساهمت في إثراء النصوص من خلال توظيفه لأشكال متعددة من الثراث الشعبي و المكونات الثقافية للمجتمع الصحراوي لمنطقة أدرار، منها الثراث الثقافي الذي يتمثل في العادات و التقاليد، و هو ما خلفه الأجداد وقد نجده يخالف العصر الراهن في تطبيق الطقوس أو ما تراكم خلال أزمنة و يعتبر الموروث الثقافي لمنطقة أدرار جزءا لا يتجزأ كن موروثها الإجتماعي:

الأولياء الصالحين: و المرتبط بالعقيدة و التراث الإسلامي، و يتبركون بالأولياء الصالحين في قوله "[12] الأقوام البائدة منها و التالدة". و يمثل هذا اسماعيل درويش حين إلتقى بأحد الأولياء الصالحين على طاولة الهعشاء فتحدثا عن الأمور الدينية و الدنياوية.

الأغنية الشعبية: ما تميزت به الأغنية الشعبية أنها حافظت على العادات والتقاليد الخاصة بالجماعة المحلية و أنها تنتقل من جيل إلى جيل، حيث وظفت أغاني شعبية متنوعة مثل "السل على مرشة القلب"، فهذه الأغنية لها طابع شعبي فيه نوعا من الحنين و حب القلب لخليلته و التمسك بحب الأرض القدسية.

العادات و التقاليد: و المتمثلة في الأقوال و الأشعار، و هي عبارة عن تجمع في ساحة و تكوين حلقة للإستماع عن الفصاحة اللغوية و الحكم و الأمثال التي تعطي طابعا ثقافيا مهيمنا على ثقافة هذا المجتمع الصحراوي و إرصاء رسالته عبر حقبة تاريخية معبرة لمجتمع ماض، و التي تهدف إلى غرس الروح الوطنية و الهوية الثقافية العربية عامة و الأدرارية خاصة.

إضافة إلى روافد أخرى كالأكلات الشعبية و الشعر الملحون و الإحتفالات والقصر الحكائي إلخ...

9. خاتمة

تعتبر رواية تلك المحبة من ضمن الدراسات الأدبية في العصر المعاصر، ومحل دراسات و أبحاث عن طبيعة صورة الصحراء الجزائرية و التي تقع في الجنوب الصحراوي خاصة في مدينة أدرار، لما تزخر بمناظرها الخلابة و مدى تاريخها العتيق و حضارتها ذات البعد التاريخي، و من هنا توصلنا لهذا المقال عن الأبعاد الفلسفية من البعد الإجتماعي، و الديني، و الثقافي باكتشاف تركيبة المجتمع الصحراوي و مدى ثقافته و تقاطع الأديان في هذه المنطقة في فترة زمنية معينة أثناء الحقبة الإستعمارية. و منها نستنتج:

- حوار الديانات و الثقافات لهذه الرواية.
- ظهور إديولوجيات متعددة.
- صورة الإسلام عن طريق المرأة الأدرارية.
- المعتقدات الفلسفية ذات طابع عقائدي و عرفي.
- البنية المورفولوجية للمجتمع الأدراري.

10. قائمة المراجع:

القرآن الكريم، الأية 31 من سورة آل عمران.

إبن خلدون، (1980)، تاريخ الحضارات، (الطبعة الثانية)، دار النشر بيروت، ص 84.

إيمان بقداسة، (1998)، المرأة الصحراوية، النظال التحرري و الوعي بالمسؤولية، (الطبعة الثانية)، الرباط، ص 10.

بروكلمان، (1908)، الإستشراق، تارخ العصور الأدبية، الصبعة الثانية، دار النشر بيروت، ص 18.

بوعزة محمد، (2010)، تحديد النص السردي، تقنيات و مفاهيم، منشورات الدار العربية للعلوم، الناشرون الجزائر بيروت لبنان، (الطبعة الأولى)، ص99.

الجيلالي بومدين، (2012)، نقد ألأدب المقارن و فلسفته، دار النشرENP الجزائر العاصمة، (الطبعة الثانية)، ص 33.

حامد الغزالي، (1984)، عن فلسفة الجمال، الطبعة الثانية، الدار العربية للدراسات الفلسفية ديمشق، ص 83.

الحبيب السايح، (1990)، تلك المحبة، (الطبعة الثانية)، دار النشر ENP الجزائر العاصمة، 24، 63، 68، 102، 124، 179، 181، 188.

حسن المودن، (2012)، الرواية و التحليل النصي، دار العربية للعلوم، ديمشق، ص 62.

ديكارت، (1958)، فلسفة مبدأ الشك، دار النشر بيروت، (الطبعة الثالثة)، عن ترجمة محمد صلاح، ص 100.

سعيد علوش، (1985)، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، (الطبعة الأولى)، بيروت، لبنان، دار الكتاب اللبناني سوسبيرس، مادة الفضاء، ص 163.

سعيد علوش، (2008)، الخطابات الكولونالية و حوار الحضارات، دار النشر طنجة، المغرب، ص 120.

شاكر عبد الحميد، (1992)، الأسس النفسية للإبداع الأدبي في القصة القصيرة خاصة، (الطبعة الأولى) الهيئة للكتاب بيروت ص 181-192.

فيصل الأحمر، (2010)، معجم السميائيات، (الطبعة ألأولى)، دار العربية للعلوم، بيروت، ص 123-128.

محسن محمد حسين، (2012)، طبيعة المعرفة التاريخية و فلسفة التاريخ، مؤسسة موكرياني للدراسات و النشر، أربيل، العراق، (الطبعة الأولى)، ص 49.

محمد الغزالي، (1940)، دار النشر ديمشق، (الطبعة الأولى)، فلسفة الأفلاطونية، ص 112.

مدام دوستاي، (1946)، أدب الرحلة، عنزان الكتاب: العالم الآخر، (الطبعة الثانية)، باريس، ص 98. عن ترجمة مصطفى غلاب ص 40.

مؤسسة موكرياني للدراسات و النشر العراق، (2012)، المعرفة التاريخية و فلسفة التاريخ، (الطبعة الثانية)، ص 60.

نادر أحمد عبد الخالق، (2008)، الصورة و القصة، بحث في أالركان و العلاقات، قصص مجدي جعفر أنموذجا (الطبعة الأولى)، دار النشر و التوزيع العلم والأيمان، ديمشق، ص 44-48.

يقطين سعيد، (1997)، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد)، المركز الثقافي العربي، بيروت، (الطبعة الثالثة)، ص 283.